تيمة الطفل وفينومينولوجيا الاسم في رواية "الأسماء المتغيرة" للروائي الموريتاني "أحمد ولد عبد القادر"

الأستاذ: عطية يوسف

جامعة محمد بوضياف – المسيلة

الملخص

نحاول في هذه الدراسة مقاربة الطفل في رواية " الأسماء المتغيرة " للكاتب الموريتاني " أحمد ولد عبد القادر" مقاربة تيماتية فينومينولوجية تستمد مقولاتها النقدية ومفاهيمها الأساسية من الفلسفة الفينومينولوجية والنقد التيماتي، حيث تبنينا مقولة التيمة باعتبارها مقولة محورية في النقد التيماتي، وتبنينا مقولة القصدية باعتبارها مقولة محورية في الفلسفة الفينومينولوجية، وذلك لتفسير العلاقات التيماتية والفينومينولوجية على مستوى النص الروائي، لاسيما ما تعلق منها بكيفيات استبطان تيمة الطفل، واستبطان تلك العلاقات الاسمية المتغيرة بواسطة نماذج قصدية متباينة، وسيرورات إحالية متوالدة، ويتم التفسير التيماتي والفينومينولوجي أولا عن طريق التقاء وعيين هما وعي المبدع ووعي المتلقي، وما ينتج عن هذا الالتقاء من معايشة وتأويل، وثانيا عن طريق مقولات نقدية لعل أجدرها بالذكر مقولات (التيمة ــ الماهية ــ القصدية ــ الاحتمالات والحدوس الفينومينولوجية) وكلها مقولات ترتبط بمحاولات إعادة إنتاج النص وتأهيل مستوياته التيماتية وتفسيرها.

الكلمات المفتاحية: **(رواية الأسماء المتغيرة – التيمة ــ الماهية ــ القصدية ــ الاحتمالات والحدوس الفينومينولوجية)**

Résumé

Dans cette étude, nous tentons d'aborder le thème de l'Enfance dans le roman "les noms variables"(El-Esmaa El -Moutaghayera) de l'écrivain mauritanien Ahmed Ould Abd El-Kader, une approche thématique qui tire ses notions critiques et ses concepts fondamentaux de la philosophie phénoménologique et de la critique thématique où

nous avons adopté la notion du "thème" comme pivot dans la critique thématique et la notion du "Intentionnalité" comme pivot de la philosophie phénoménologique afin d'expliquer les rapports thématiques et phénoménologiques au niveau du texte narratif, en particulier ceux relatifs à l'introspection du thème de l'enfant et l'introspection des relations des noms variables à l'aides des motifs hétérogènes et des progressions référentielles générées. cette explication thématique et phénoménologique s'effectue d'une part à travers la rencontre de deux consciences qui sont: celle de l'auteur et celle du lecteur, et ce qui résulte de cette rencontre de coexistence et d'interprétation et d'autre part à travers des notions critiques qui sont peut-être et plus particulièrement le thèmes - l'essence - l'intentionnalité - les possibilités et les intuition phénoménologique. Toutes ces notions sont liées à des tentatives de reproduction du texte et la réhabilitation de ses niveaux et les expliquer.

Les mots clés (les noms variables - le thème - l'essence - l'intentionnalité - les possibilités et les intuition phénoménologique.)

كثير من المعطيات الإنسانية تبدو بسيطة نحدس بساطتها لمجرد أننا دأبنا عليها وألفناها منذ نعومة أظافرنا، ومنذ اتصالاتنا البدئية الواعية، حينها اعتقدنا بكثير مما يسكن عالمنا على أنه بصمة طبيعية جبلتنا الحياة بكل تفاصيلها على الاستغراق فيها والفناء في دلالاتها، ولعل أسماءنا تلك المشاريع الوجودية المستمرة لطالما تقبلناها واستحوذت علينا، وآمنا بهويتنا الاسمية، وخلنا أن تقلبات الاسم فرضية بشرية لا تحتاج للمساومة الفلسفية بقدر ما تحتاج للتأهيل حتى يكون كل واحد منا في مستوى اسمه، أو يكون الاسم في مستوى الافتراض الغيبي الذي يتوخاه من يعتقدون أنهم يمتلكون الصلاحية لوسمنا، ونعتقد زيفا أننا أحرار كل الحرية في امتلاك أسمائنا في حين أننا لم نكن أحرارا أبدا في اختيارنا لها.

لذلك ماذا تفعل بنا أسماؤنا؟ هو سؤال أنطولوجي أجدى وأقمن من ماذا نفعل بأسمائنا؟ هذه الأسماء التي ميزت الحضارة البشرية وميزت الإنسان منذ كان في الجنة، وميزت كل تجليات الوجود البشري، ولم نستطع يوما الاستغناء عنها هي في الحقيقة معطيات لا تجعل من الوجود البشري وجودا اجتماعيا أو دينيا أو غير ذلك بقدر ما تجعله وجودا اسميا، حيث تحتلنا أسماؤنا دائما بطريقة كاريزماتية غريبة، ونكون في النهاية أسماء تختصر وجودنا وتواريخنا ومواقعنا.

01/ المرجعيات النظرية:

كم يثير الاسم من أسئلة وغوايات بحثية حين يرتبط بتيمة الطفل، وحين نبيح لأنفسنا التنقيب في ماهية العلاقة التي تربط بين الاسم والطفل تنقيبا فينومينولوجيا تيماتيا، من حيث التنقيب الفينومينولوجي لا يلتزم بنظرية

هوسرل (Husserl) بل "يفتح جميع الآفاق الممكنة من أجل تفسير الإبداع"(1)، ومن حيث التنقيب التيماتي يعطي أولوية التحليل والتشريح والقراءة للنص، مقاطعا الاتجاه النقدي اللانسوني، ومهتما بالدراسة الداخلية للنصوص، كما يركز اهتمامه على التيمة التي هي محور النسق الدلالي في الأثر الإبداعي ومحور المعنى الجوهري للعمل الأدبي، تتحدد حسب موقعها وعلاقاتها داخل النص وصلاتها بالوعي، ومحوريتها الدلالية، وهيمنتها وقوتها الانتشارية، والنقد التيماتي يهتم بتلك العلاقات الإحالية والقصدية بين الذات والموضوع، ويحاول أن يرصد كيفيات استبطان الوعي المبدع وتملّكه للأشياء، وكيفيات تحويل هذه الأشياء إلى مواضيع وماهيات على مستوى الوعي، فيكون موضوع البحث هو محتويات الوعي، وما هو خارج هذا الوعي يعتبر غير موجود، و"هذا يعني أن كل مفارق كل ما ليس معطى بالنسبة إلي بنحو محايث يجب أن يوصم بإمارة العدم" (2) ، كما أن الناقد التيماتي حر في اختيار الموالج النقدية وحر في اختيار البدايات والنهايات التي يعتقدها قمينة بالاهتمام، ولذلك "لا وجود في القراءة الموضوعية لنقطة بدء ونقطة وصول، فالمدخل إلى حقل القراءة الموضوعية مدخل حر مما يضفي عليها شيئا من السحر"(3)

في الحقيقة لم نكن لنتفطن لما قد يثيره الاسم من فتنة وغواية على مستوى البحث لولا رواية "الأسماء المتغيرة" التي ألهمتنا حماس التفتيش عن ماهية الاسم لطفل الرواية، حيث الاسم وجود ظاهراتي يتأسس على "الإحالة المتبادلة أو فكرة القصدية التي يتم من خلالها حدس الماهيات الكلية في الشعور" (4) ، فلا هو ذاتي مثالي ولا هو واقعي موضوعي، بل لا يمكن إلا أن يكون الاسم علاقة جوهرية وجودية بين الذات والموضوع، أو بالأحرى هو الذات

والموضوع في الآن نفسه، كأنه عملة واحدة ذات وجهين، يتميز بإحالة نادرة وقدرات دلالية خلاقة، وتكثيف رمزي غامض جدا.

لذلك يثير اسم الطفل البطل في رواية "الأسماء المتغيرة" كثيرا من الإحالات القصدية المتبادلة، وفي هذه الدراسة نحاول رصد الاسم كظاهرة، ونقاربه كما يتجلى في الوعي "أي بتحليل الوعي وقد استبطن الأشياء فتحولت إلى ظواهر"(5) ، بوصف الاسم موضوعا قصده الوعي وارتبط به واستبطنه، وبوصف أن هذا الموضوع لا يحقق وجوده إلا عن طريق هذه القصدية، وعن طريق توجه الوعي إليه عن قصد وتحويله من وجوده المحايث المستقل إلى ظاهرة متحررة من قيود التعليق الهوسرلي حين "يجب أن يوضع وجود العالم موضع التعليق" (6) ، والموضوع كظاهرة يحيل بدوره للوعي، فتكون فكرة الإحالة متبادلة في سياق قصدية متبادلة، ويمكننا هنا أن نحدد موضوع الدراسة الفينومينولوجية والتيماتية على أنه تلك القصدية والإحالة المتبادلة، وليس الوعي في حد ذاته أو الموضوع في حد ذاته، وستكون فكرة القصدية المتوخاة بالدراسة هي تلك التي تتأسس بين الغير كوعي من جهة واسم الطفل كموضوع من جهة ثانية، ومن جهة أخرى نتوخى استيعاب فحوى الإحالات المتبادلة وفكرة القصدية بين تيمة الطفل كذات واعية من جهة، وتيمة الاسم كموضوع من جهة ثانية.

وبين القصدية الأولى (بين الغير كوعي واسم الطفل كموضوع) والقصدية الثانية (بين تيمة الطفل كذات واعية وتيمة الطفل كموضوع) لا يمكن إغفال قصدية الوعي المبدع، وكذا قصدية التلقي "إذ يرى جورج بوليه أن فعل القراءة ينطوي على التقاء وعيين: وعي القارئ ووعي المؤلف" (7) ، وهنا يكمن الاعتياص حيث إن فكرة القصدية التي تربط بين الذات (الوعي)

والموضوع هي في حد ذاتها تتحول بدورها إلى موضوع لم يحقق وجوده إلا في سياق تجليه على مستوى الوعي الذي لا يحقق وجوده أيضا إلا باتجاهه إلى الموضوع، وينتج بذلك نموذج قصدي جديد، وسيتحول بدوره إلى موضوع يحتاج إلى وعي وبالتالي نموذج قصدي آخر، وهكذا دواليك، وهذا ربما ما لم يشر إليه "هوسرل" الذي "اكتفى بوضع المنهج وكشف مكونات الفعل الشعوري القصدي دون أن يقوم بتطبيقه وذلك لأنه وضع العالم كله بين قوسين مؤقتا" (8) ، ولذلك يفترض التفرس جيدا في هذا التحول القصدي الذي يبدو أن سيرورته لا تتوقف أبدا، وأن توالده حر تماما لا تحده حدود أو تخوم، لاسيما على مستوى النص الإبداعي الروائي الذي تتواشج فيه كثير من القصديات والإحالات المتبادلة، لأن قطبي النسق القصدي (الوعي والموضوع) متغيران دائما بنمط زئبقي لا يعرف الاستقرار والثبات، لذلك ففكرة الوصف الفينومينولوجي قد لا تؤدي وظيفتها الإجرائية المتوخاة إذا كان الوصف يغفل ماهية التوالد القصدي والتحول الإحالي، ويغفل فرضية الاحتمال، حيث سنتبنى فكرة الاحتمال الظاهراتي بدل التعليق أو الرد الظاهراتي لأننا نعتقد أن الأنجع لمقاربة التحول القصدي هو الاحتمال، ذلك أن الاحتمال الظاهراتي أيضا يتأسس على التحول والتوالد، وهو أيضا حر في كيفيات التموقع الإجرائي، أما التعليق الفينومينولوجي (الظاهراتي) فلا يمكنه مقاومة التوالد الإحالي، حيث إن فرضية وضع العالم بين قوسين موقع التأجيل تثير كثيرا من الالتباس، لأن الوعي – من جهة أولى – لا يمكن الجزم بأنه سيتقيد بهذا الإجراء، على اعتبار أن الوعي في اعتقادنا كلي في قصيدته وجشطالتي في إحالاته، وإن كان توجهه الكلي ليس متكافئ الأجزاء فهذا لا يعني أن الوعي في اهتماماته التي تبدو أقل حضورا وإلحاحا يغيّب ما يبدو لنا مهملا ومغيّبا. ولأن فكرة تعليق العالم ووضعه بين قوسين – من جهة ثانية – تحيل إلى العدمية، والعدمية في حد ذاتها مستويات

أخرى للوجود "فالعدم ليس مجرد اللاشيء بل الجانب الآخر لوجودنا المادي أي أن العدم في حد ذاته يمكن أن يكون وجودا معنويا لا تستطيع الحواس الخمس أو العقل البشري المحدود إدراكه" (9)، ونحن نعي هنا أن تعليق العالم عند "هوسرل" ليس هو فرضية إلغائه وإنما هو تأجيل الحكم عليه إلى حين يتحول إلى ظاهرة؛ بمعنى حين يتمكن الوعي من التوجه لهذا الوجود قصدا فيكون الوجود موجودا في الوعي وليس مستقلا عنه، لكن هذا التصور يفقد قوته حين ندرك أن الوجود دائما داخل الوعي، ولا يمكن تطبيق التعليق الظاهراتي كيقين منهجي للظفر بالماهيات. لأن الوعي عندما يتجه لموضوع ما يقصده قصدا كليا، انطلاقا من كل الخبرات القصدية التي أتيحت له، ولذلك لا يمكن التأجيل أو تعليق العالم ووضعه بين قوسين على اعتبار أنه حاضر بالقوة كخبرة إنسانية متحولة دائما ومتوالدة، وهذا يعني أن الوعي حين يقصد موضوعا ما فهو في الآن نفسه يقصد كل مواضيع عالمه في الوقت نفسه، فلا يمكنه التخلص من هذه القصدية الكلية، ولكنه يستطيع أن يبدي اهتماما أكبر بموضوعه المباشر، وهذا الموضوع المباشر الذي نعتقد أن الوعي قد قصده واضعا المواضيع الأخرى بين قوسين هو في الحقيقة يستمد مشروعيته من المواضيع الأخرى، وهو في الحقيقة نمط من التحول، وبذلك لا وجود للموضوع كموضوع مستقل على مستوى الإبداع، هناك فقط ماهيات موجودة في الوعي "لذلك يمكن التعرف على الحقيقة من خلال التعرف على الماهيات الماثلة في الوعي" (10) كما أن هناك فقط تحولات ظاهراتية وتحولات قصدية متكاملة ومترابطة، فصلها وتعليقها غير ممكن، لذلك بدل وضع العالم بين قوسين نحرره "ونضفي عليه المعاني الحقيقية التي استخلصناها من الماهيات السابقة" (11) وندركه كعلاقات قصدية محتملة متوارية مع الظاهرة التي أبدى الوعي بها اهتماما واحتفاء في لحظة ما، لا كظاهرة معزولة بل كتحولات قصدية لامتناهية، تفرض علينا لدراستها فكرة

الاحتمال، والاحتمال الفينومينولوجي (الظاهراتي) يعني هنا دراسة التحولات القصدية التي تسبق التجلي القصدي الظاهر على مستوى الإبداع، على اعتبار أن تيمة الطفل في الرواية بمختلف تمظهراتها القصدية هي في النهاية نتيجة لعلاقات وتحولات قصدية سابقة وغائبة وليست ظاهرة، ولذلك ينتفي اليقين حين نجزم بتحول قصدي معين، لكن حين نلجأ للاحتمال حينها يكمن اليقين الظاهراتي، والاحتمال الفينومينولوجي يتسم بكثير من التأويل لكنه تأويل مرتبط بالتحولات القصدية، سواء أكانت تحولات قصدية سابقة أو لاحقة، وهو تأويل لا يمكن أن يكون محدودا أو منتهيا لاسيما إذا ارتبط الأمر بأشد المعطيات التصاقا بالإنسان مثل الاسم.

والاسم أسبق من وجودنا مثل اللغة نعتقد أننا نصنعها في حين أنها هي التي تصنعها وتنتجنا، نخال أننا نخلقها لكنها في الحقيقة تخلقنا، ولكونها أفضل تجل للتحولات الإحالية فسنتوخى دراستها كونها هي الأخرى تحولية، حيث إن الدال والمدلول يمثل علامة، والعلامة بدورها تتحول إلى دال يحتاج إلى مدلول فتنتج علامة أخرى، والعلامة الأخرى بدورها تتحول إلى دال يحتاج إلى مدلول، وهكذا حتى يتحول العالم إلى علامات لانهائية، وتبقى العلامة اللغوية هي أوار الوجود الاسمي، حيث الاسم هو علامة لغوية متحولة، وحيث الاسم أقدم علامة لغوية حافظت على وجودها وتوالدت بقدرة كثيفة لا يمكن إقصاؤها أو تجاهلها.

2 / فينومينولوجيا الاسم الأول:

بعد غربلة فوضى النظام السردي في رواية "الأسماء المتغيرة" أمكننا أن نحظى بترتيب معين للأحداث، لأن رصد التحولات القصدية للاسم لا بد أن

يتأسس على نوع من النظام والسعي إلى "اشتقاق قوانين الظواهر وانتظامها مما يظهر كأنه فوضى تامة" (12) ، وقد كانت الصورة الدلالية التي تحيلنا إلى البداية هي كون الطفل الذي يصوره الوعي المبدع في بداية الرواية خاضعا لإرادة غيرية تسخيرية هو في الحقيقة – قبل أن يستعبد – وحيد أبويه "كان يسبح في بركة قريبة من قرية أبيه وكيف داهمه على حدة فارس من قرية أخرى معادية لقريته واختطفه أسيرا" (13) ، وهذا الطفل اسمه الحقيقي "موسى"، والمقصود بالاسم الحقيقي هو الاسم الأبوي، وهو الاسم الأول لهذا الطفل، بمعنى أنه التجربة الاسمية الأولى في حياة الطفل، وأننا بصدد القصدية الاسمية البدئية، حيث إن الطفل لأول مرة تحتله اللغة بواسطة الاسم، ويكون هذا الاسم شفرة الوجود التي تتيح فرص التموقع الأسري، ولا بد أن يكون هذا الاسم سلطويا على اعتبار أن الطفل لا يمكن أن يختار اسمه في كل الحالات، لكن السلطة الاسمية هنا هي سلطة أبوية، وهي سلطة قصدية تمارس تواصلها مع الطفل عن طريق الاسم، ولذلك يحوّل الاسم الطفل من موضوع خارج وعي الأبوة إلي تيمة وظاهرة أهم تجلياتها الماهوية الاسم، فالاسم إذن من أهم الجسور القصدية بين وعي الأبوة وموضوع الطفل، ونظرا لأهمية الاسم في هذه الحالة الأنطولوجية لا يمكن أن تمارس الأبوة صلاحياتها الاسمية اعتباطا دون مراعاة أبجديات الانتقاء والانتخاب، وهنا تحيلنا المؤشرات السردية إلى الفراغ ولا نظفر بأية إجابات واضحة عن وعي الأبوة الاسمي، ولذلك نتجه إلى الاسم في حد ذاته نستنطق دلالاته المتباينة وإحالات مواقعه اللغوية المختلفة، وننبري نمارس الحدس الفينومينولوجي، "والحدس الفينومينولوجي هو الرؤية العقلية للماهيات للعلاقات والبنى الخالصة التي تنتظم الموضوعات من حيث هي أشكال وعي ذات بداهة عقلية مطلقة، فالحدس هو الشكل العام لنشاط الوعي سواء تعلق بالمفرد أو بالكل بالموضوعات أم الدلالات، بالأفكار أم الأحكام وهو مشروط

بحدود المعطى الماثل للوعي" (14) لذلك على الناقد التيماتي أن يحدس الاحتمال الفينومينولوجي الأرجح، (وستبرز – مهما توخيت الموضوعية – وجهة نظر القارئ، وينفتح المجال وسيعا للتأويل وتضخيم المعنى وتعدد القراءات، وتظهر الذاتية بكل وضوح في اختيار الموضوعات وشرحها، وتتجلى قيمة القارئ في توسيع حدود التيمة "لتغدو القراءة من ثمة عملية إبداعية أو عملية محاكاة تتماهى فيها لغة النقد مع لغة الكتابة") (15).

تتيح لنا المؤشرات الدلالية الروائية إدراك موقع الطفل داخل الأسرة من حيث هو "ولده الوحيد" (16)، وهذه الوحدة ستمارس سلطتها على القصدية الأبوية، حيث ينفتح المجال واسعا ويهيئ لشحن الاسم بكثير من التفخيم والتكثيف الدلاليين، ويتحول الاسم في حد ذاته إلى سلطة تفرض وجودها بقوة على الأسرة، وتختصر كثيرا من المواقع حاظية بكل الامتيازات الأبوية، هذه الأبوة التي تمسي معلّقة كل الآمال على هذا الوجود الاسمي الوحيد، تتفنن في شحنه بترسانة من العواطف المتأججة وبكثير من الاحتفاء والامتنان، ومن هنا هذا الاسم الوحيد يمارس غروره السلطوي، ويسلب السلطة الأبوية إرادتها ويجبرها على الخضوع، وتنقلب الدلالة بعد أن مارست الأبوة سلطتها الاسمية على الطفل في البداية، فالاسم في حد ذاته مكّن للطفل سلطة قوضت السلطة الأبوية، وجعلتها خاضعة في وعيها للاسم الوحيد الذي تزيده الوحدة تميزا وتفردا وقوة تمكّنه من احتكار القصدية الأبوية، وفي الآن نفسه تمكّنه من احتكار كثير من الأسماء الافتراضية، فهو يختصر كل الأسماء التي قد تهجس في خلد الأبوة حين تتمنى الأبوة أطفالا آخرين لكنها تعجز عن إنجابهم، فتحوّل كل أحلامها الاسمية للاسم الوحيد "موسى" الذي تحوّل وجوده

الاسمي إلى حضارة كاملة تؤثرها الأبوة بكل ألوان التبجيل والتقديس، فيجد الطفل "نفسه محاطا بفائض من الاهتمام" (17).

سلطة هذا الاسم هي سلطة صوتية أيضا لأن هذا الاسم سيحظى بكثير من الترديد الشفوي على اعتبار أنه وحيد، والترديد الفونامي يكثف التواصل القصدي بين الأبوة والبنوة ليحتل الاسم كصوت كل الفضاءات، وينتشر كنغم وجودي مقدس محتكرا كل أحرف النداء وأنواع المنادى، ولذلك فالاسم الوحيد يمتلك رصيدا كافيا من الاحتفاء الأبوي مكّنت له الفطرة الأبوية من جهة والوحدة من جهة ثانية، فالفطرة الأبوية والوحدة هما الفكرتان الأساستان اللتان تستمد منهما فكرة القصدية وجودها، وهي قصدية إيجابية يكون الاسم فيها مشحونا بكثير من التعالي والفخامة، ويكون "موسى" أوفر حظا في وجوده الاسمي بحكم هذا النمط القصدي الذي عززته الأبوة من جهة والوحدة من جهة ثانية، والذي فرضته الأبوة في البداية لكنه فرض نفسه في النهاية، كما استطاع أن يختصر كل وجود الأبوة والبنوة معا حين استوعب الوجود الأسري في حد ذاته، واستوعب كل الآمال والدلالات التي تمجده، حيث لا يمكن للأسرة أن تستغني عن اسم "موسى" لأن الاستغناء عنه يعني القحط الأسري والهلاك والعدم، ومن هنا كانت الأسرة تتلذذ بهذا الاستعباد الاسمي وبكل تجليات السيد الاسم، لأن وجوده يمثل الخصب والنماء وتأجيل الموت والفناء، ويحقق فكرة الوجود الأبوي وفكرة الخلود الأبوي، وفكرة الأحلام والطموح والجمال والغبطة.

واسم "موسى" يحيل على الذكورة بكل ما تعنيه هذه الذكورة من قيمة مركزية، لاسيما في مجتمع قبلي يعتبر الاسم الذكوري عنده تتويجا انتصاريا لمكافحة الاندثار والعفاء، وخاصة أن اسم "موسى" صيغة رسمية ليس على

مستوى التوثيق الكتابي والورقي بل على مستوى صيغة الحرية، حيث ينعم هذا الاسم بأفضلية الحرية التي منحه إياها انتماؤه الدموي لأبوة شرعية جعلته يحظى بكل امتيازات الاسم الحر وبكل امتيازات الانتماء الأسري والقبلي معا، وهذا يعني مزيدا من الاحتفاء والتفخيم، حيث تتسع دائرة الرواج الاسمي متجاوزة الأسرة إلى القبيلة وربما إلى غيرها من القبائل، وهذا في الحقيقة تحول قصدي إيجابي، حيث تحولت القصدية الأولى الأبوية إلى قصدية قبلية، وإيجابية القصدية الأبوية تحولت إلى قصدية إيجابية قبلية، والاسم بدوره تحول من قصديته السلطوية الأسرية إلى قصديته السلطوية القبلية، حيث هو الآخر مارس سلطته على مستوى الأسرة وعلى مستوى القبيلة.

بالإضافة إلى كل ما سبق من احتمالات فينومينولوجية اسم "موسى" ورد في الرواية مرتبطا بصفتين أبويتين الأولى هي "الحبيب" والثانية هي "الغالي"، "تعالى يا موسى الحبيب ... هذا هو ولدي الغالي موسى" (18) ، وهاتان الصفتان تؤكدان الاحتمالات الفينومينولوجية السابقة من حيث هما صفتان تتوهجان عاطفة أبوية متأججة وتحيلان على كثير من دلالات الافتتان والتقديس، فكان الاسم مشبعا عاطفيا وماديا حد الثمالة أبوة وأسرة وقبيلة، ودلالة وموقعا وحرية وصوتا، وكانت التحولات القصدية وفق الاحتمالات السابقة إيجابية جدا، وكان الاسم في فخامته وثرائه وتعاليه أوار تلك التحولات الإيجابية بين الأبوة والبنوة من جهة وبين القبيلة والبنوة من جهة ثانية، وما نتج عن ذلك من قيمة إيجابية للاسم تميزت بالانتماء والاحتفاء والحرية، ومن قيمة إيجابية لتيمة الطفولة حيث حماها الاسم ومكّن لها.

3/ فينومينولوجيا التغيير الاسمي:

تحيلنا المعطيات السردية إلى أن "موسى" لم يتح له وقت كاف للتفرس في النعيم الاسمي الذي كان متاحا له، فقد باغته فارس من قرية معادية واختطفه "ليسلمه بعد أسبوعين إلى ذلك الشيخ الأشيب الغريب المنظر" (19) ، وهذا العمل الانتقامي الذي يتأسس على القصدية لم يتوخ مجرد طفل بل انتقى النموذج الاسمي الأسمى حتى يكون للانتقام معنى ومغزى – ولم يتعلق الأمر بطفل آخر أو بطفل من العبيد أو بفتاة – إنما استهدف "موسى" ذاك الاسم الذي أحالنا سابقا على دلالات المجد الأسري والقبلي، ولذلك كان هذا المجد الاسمي سببا وجيها لاستهداف خطفه بغية توجيه ضربة انتقامية موجعة للقبيلة، ومنها تتحول القصدية من مستواها الإيجابي حيث الأسرة والقبيلة إلى مستواها السلبي حيث تيمة الطفولة يستبطنها الوعي المعادي وسيلة فعالة للانتقام من القبيلة، وكأن الطفل هو نفسه القبيلة، نهبه يعني نهبها وخطفه يعني سلبها وإبادتها.

من جهة أخرى حين نولي وعينا سِجاح الوعي المبدع من خلال التجليات اللغوية والدلالية واستنطاق "مدلولات الصياغة اللفظية عبر ألفاظها وتراكيبها, وفق مبدأ التقدم والارتداد وإضاءة المستوى اللغوي بالمستوى النفسي" (20) نلفيه قد أغفل جل الاحتمالات الفينومينولوجية التي اكتنهناها في سياق رصدنا لفحوى فكرة القصدية الأولى، حيث الاسم أتخمه الاحتفاء الأبوي والقبلي وموقع الوحدة والنعوت العاطفية المتوهجة وموقع المركزية والسلطة، ولعل أقمن تجليات الإغفال التي مارسها الوعي المبدع في سياق المحتوى القصدي مع الاسم هو إسقاط اسم الأب واسم القبيلة وإسقاط اللقب، وهذا الإسقاط يخالف عادة الوعي المبدع لأنه على طول المسافات السردية

يبدي اهتماما جادا بمثل هذه الأسماء: (محمد بن حمود بن المرابط – عبد الصمد بن عبد الله – عبداتي بن عبد الله – أحمد سالم بن علي – الشريف سيدي بن ملامي الزين – عثمان بن علي...) لكنه بالنسبة لـــ "موسى" أسقط تلك الأسماء فلم يذكر لقبه أو اسم والده أو قبيلته، وكان الاسم عند الوعي المبدع وحيدا مجردا من لفظة "بن" التي تعطي للاسم في المجتمع القبلي الموريتاني قوة انتمائية كبيرة تحيل على الهوية وعلى الحرية في الوقت نفسه، فورد الاسم مخلوعا من موقعه اللغوي التقليدي، وهذا يتنافى مع كل معطيات الرفاهية التي حظي بها اسم "موسى" في كنف قومه، حيث – نحتمل – أن له لقبا ويمتلك لفظة "بن" واسما أبويا، لذلك يبدو الإغفال مقصودا، وكأن الوعي المبدع منذ البداية يضمر تجريد "موسى" من فكرة التوهج الاسمي والاحتفاء الموقعي، ويؤهل فكرة السرد لتقبل مشيئة السلب التي مارسها الخطف كتحول حاسم ألغى اسم "موسى" نهائيا وقمع تاريخه الاحتفالي، ولذا يبدو الإغفال تواطؤا دلاليا يمهد لاغتيال الاسم، وما يؤكد أيضا هذا التمهيد هو إلغاء الوعي المبدع لعشر سنوات كاملة من حياة هذا الاسم، حيث يبدو "موسى" في البداية وهو طفل أسير "قد أهى بالضبط العقد الأول من عمره"(21) ، وقد اكتفى الوعي المبدع ببعض الإشارات المقتضبة جدا تبين لنا في مجملها أن الطفل كان اسمه "موسى" وهو وحيد أبويه، وفجأة اختطف وأسر عبدا، وفقده قومه إلى الأبد، وكل ذلك يعتبر تثمينا للسياق الدرامي الذي توخاه الوعي المبدع وألح على تصويره كثيرا، كما كد لتأزيمه، واجتهد في ذلك. وما يهمنا هو أن قصدية الوعي المبدع تبدو ظاهريا في مستوياتها السلبية لكنها في الحقيقة تؤسس للتمهيد الدرامي، وتحيل على فكرة التحول القصدي الذي تكون بداية تصعيده السلبي فينة الاختطاف الانتقامي ومحاولة إجهاض الجاه الاسمي.

طفل بلغ عشر سنوات لديه القدرة الكافية للاحتفاظ باسمه على مستوى الذاكرة، ولذلك احتار "لماذا ينادونه هكذا سلاك" (22) ، وهنا يكمن التغير الاسمي الأول من اسم "موسى" إلى اسم "سلاك"، فدون إرهاصات أو مقدمات سلّم الخاطف الطفل لشيخ اسمه "أحمد سلوم" في سياق من الغموض لا يحيل على تفاصيل هذا التسليم، ولا على كيفيات تغيير الاسم، وكأنه تقليد تلقائي ونمط من العادات التي دأب عليها المجتمع الموريتاني من خلال الرواية، ولذلك لم يول الوعي المبدع اهتماما بتفاصيل عملية تغيير الاسم ليحيلنا بطريقة ضمنية على مشروعية هذا التغيير في وعي المجتمع الذي يبدو أنه يعتقد بضرورة تغيير كل اسم فقد انتماءه الأبوي والقبلي وفقد حريته، فيكون التغيير الاسمي مرادفا للعبودية والتملك والنخاسة، ولا أحد يبالي أو يستفسر أو يعترض، فالاحتمال الفينومينولوجي يحيلنا إلى أن الخاطف أو السيد الأول "أحمد سلوم" كان يمكنه ببساطة تامة أن يستجوب الطفل عن اسمه الحقيقي، وهو طفل يبلغ من العمر عشر سنوات، وكان يمكنه أن يتبنى الاسم الحقيقي ويناديه باسمه "موسى"، لكن ما حدث هو تغيير الاسم دون تعليق أو استنكار أو تهجين لهذا التغيير، وكل الذين كانوا في القافلة لم ينبسوا ببنت شفة عن هذا التغيير، بل على طول المسافات السردية، وفي سياق كل التحولات الاسمية لم نلف أي انتقاد لهذا التغيير أو فري أو تشجيب، والأمر يبدو عاديا في وعي الآخرين، وهذا التسليم المطلق بعادة تغيير الأسماء المرتبطة بعادة النخاسة هو في الحقيقة راسخ في البنية الاجتماعية كعادة تمتلك من قوة الوجود التاريخي ما يجعلها تبدو عادية لا تثير امتعاضا أو استفسارا، ومن هنا يتغير النسق القصدي للاسم حيث إن اسم "موسى" – كما أومأنا سابقا – أقطاب نسقه القصدي هم الأبوة والقبيلة والبنوة، أما النسق القصدي الجديد، فهو النسق الذي أنتج اسم "سلاك" مستغنيا ببرودة عن الاسم الأول "موسى"، وهذا النسق ليس أبويا

وليس مرتبطا بالمالك الجديد مباشرة بقدر ما هو مرتبط بتقاليد البنية الاجتماعية التي تفرض سلطتها على الوعي الفردي كذات موضوعها الطفل، والطفل على مستوى الوعي الجمعي حين فقد حريته بالضرورة يفقد اسمه الأول، وهذا التغيير ناجم عن تغيير الموقع، حيث إن الطفل "موسى" حر أما الطفل "سلاك" فهو عبد، فيكون الاسم الجديد علامة إحالية عميقة على العبودية، ومن هنا بدا التغيير الاسمي في سياق العمل النخاسي طبيعيا وضروريا في الآن نفسه من منظور الوعي القصدي الجمعي، وهذا الوعي القصدي معناه تأهيل استقبال الموضوع على مستوى الوعي والشعور، ذلك أن "القصد هو الشعور الفعال الذي يصنع موضوعه في الإدراك" (23) ، لكن ما يميز الوعي القصدي هنا هو أنه يتجاوز الفرد ويتأهل على مستوى جمعي، فكان بذلك السيد المالك لهذا الطفل لا يبتكر عادات اسمية مبتدعة بقدر ما كان يتوخى ترجمة الوعي الجمعي والوفاء لتقاليد البنية الاجتماعية، حيث إن الاسم يصبح ضحية معتقد اجتماعي تستبيحه قصدية سلطوية قاهرة تتجاوز السيد في حد ذاته، وتتجاوز كل احتمالات النقد والرفض.

يستمر التوالد القصدي كلما تغيّر موقع الطفل، ويستمر معه التغيّر الاسمي كلما تغير السيد المالك، وكأن الاسم هو ملكية شخصية ليس لصاحبه بل للسيد يتصرف مع الأسماء بحرية، في حين أن الطفل مجرد من كل مظاهر الحرية، فلا يمكنه التحكم في اسمه كما لم يتحكم به منذ بداية وجوده حين كان الاسم أبويا يحيل على الانتماء والحرية والتعالي، لكن فقدان الموقع الأبوي سلب الطفل الاسم الأبوي وبالغ في تغيير أسمائه بحرية مطلقة تغذّيها البنية الاجتماعية وتوجّهها.

والاحتمال الفينومينولوجي يستمد دلالته من السياقات الروائية المتعددة التي تحيلنا على كون الاسم في المجتمع الموريتاني مقدس وخالد، ولا يمكن أن نتوقع فقدان الطفل لاسمه في سياق تموقعه الطبيعي في كنف أسرته وقبيلته، لكن لمجرد أن يفقد الطفل هذا الموقع يفقد حريته ويفقد تلقائيا اسمه أكثر من مرة، ولذلك لما تحول الطفل إلى سيد جديد اسمه "عبد الصمد" تغير اسمه مرة أخرى إلى "بلخير" "فهو سلاك الذي أصبح اسمه في المدة الأخيرة بلخير بإصرار من عبد الصمد"(24) في فترة وجيزة، ثم تغير المالك فتغير أيضا الاسم "اسمه الآن مبروك وليس بلخير"(25) وهكذا يتغير الاسم باستمرار، هذا الاسم الذي كان يفترض به أن يكون ملكية شخصية مقدسة خالدة تحول إلى قيمة مبتذلة تقلبها السياقات وتنحتها الظروف باستمرار بإزميل الاستعباد والتسلط، وكان يفترض أن يمارس الاسم سلطته وحضوره وهيبته لكنه تحول إلى سياط تجلد صاحبه ورمال تسفيها الزوابع والرياح باستمرار، وهذا الاسم الذي كان من المفروض أن يتيح لصاحبه صلاحيات ممارسة الهوية أصبح نقمة تجتهد لقبر الهوية.

إن التغير الاسمي ارتبط بالتحول القصدي، حيث إن القصدية الأبوية تأسست على الاحتفاء والتبجيل والحرية، ومكنت للاسم صولجان السلطة، أما القصديات الأخرى فقد تأسست على تدنيس الهوية وعلى الاستعباد، فالقصدية الأولى حرّرت الاسم من قيود التسلط الأبوي البدئي، أما القصديات الأخرى فقد كبلت الاسم وروضته لخدمتها على اعتبار أن النخاسة هنا هي في الحقيقة نخاسة اسمية قبل كل شيء، تستهدف استعباد الاسم وترويضه ليتسنى لها استعباد وترويض صاحبه بسهولة، وفكرة تغير الاسم في حد ذاتها تطحن الطفل باستمرار وتكرر نهبه وسلبه، وتجعله يعتقد جازما أنه لن يتمكن من التحرر ما لم يتمكن من التحكم في اسمه، فكان التغيير الاسمي استعبادا ذكيا يبيد باستمرار

كل محاولات إنشاد الخلاص، ويتيح للسيد باستمرار التحكم في المملوك ليس جسديا بقدر ما هو تحكم شعوري فتاك يحوّل الإنسان إلى حيوان بليد تجره أسماؤه وتقيّده أكثر من القيود.

والاحتمال الفينومينولوجي في هذه الحالة يحيلنا إلى كون الاسم الجديد لو تمكن من التعمير لأتاح فرصة للاستقرار الذي قد يعني الهدوء وتضميد قروح الهوية وربما محاولات إنشاد الحرية، حيث يتيح الوقت فرصة للتصالح بين الاسم الجديد وصاحبه وفرصة لتكوين علاقات إنية تمكّن الطفل من ترميم أناه واستعادة عافيته الأنطولوجية، وتحفيز رغبات الحرية، لكن التغيير الاسمي يقمع كل تلك الاحتمالات، ويصيب فكرة المصالحة بالتلاشي، فيبقى الأنا دائما مسلوبا منهوكا عاريا من كل حماية، حيث يتحول الاسم من موقع الحماية إلى موقع الافتراس والجلد والقمع، وهذا التحول يتلاءم مع التحولات القصدية الجديدة التي تتوخى الطفل عبدا دائما يتسم بالخنوع والخضوع، ولا بد أن نومئ إلى أن التغيّر الاسمي الذي خضع له الطفل في الرواية لم يتوقف أبدا، وأسماؤه كانت كثيرة "حيث وصلت إلى ثمانية أسماء خلال مراحل عمره"(26)، لكننا اكتفينا في دراستنا بالحديث عن الأسماء الأولى (موسى – سلاك – بلخير – مبروك) لأنها ارتبطت بالطفولة كتيمة تحدد دراستنا، ونستعمل هنا مصطلح تيمة بدل ثيمة لأن "الذين يعربون عن الفرنسية يستعملون تيمة"(27).

4/ فينومينولوجيا الدلالات الاسمية:

يكمن الاعتياص – لرصد الدلالات الاسمية كما تتبناها النماذج القصدية – في كون الوعي المبدع لا يقدم لنا إجابات كافية مباشرة، وكما – أومأنا سابقا – نجد الاسم مباشرة دون مقدمات تاريخية تتيح لنا فرصة التعرف

على كيفيات انتقاء الاسم وكيفيات استبطانه وأسباب اختياره، ومادامت الإجابات السردية المباشرة غير متوفرة فإننا سنلجأ إلى استنطاق السياقات السردية وتأويلها عن طريق الاحتمالات الفينومينولوجية التي تؤسس دائما للدلالات الممكنة دون ادعاء تقديم إجابات مطلقة.

"موسى" هذا الاسم الأول الذي حظي به الطفل في كنف أسرته، ولا يمكن في كل الأحوال أن يكون ارتجاليا بقدر ما يكون قد خضع لانتقاء وتأهيل، والعادة الاسمية قد تحيل إلى كثير من الاحتمالات لعل أقمنها بالذكر أن اسم "موسى" على مستوى الوعي الأبوي يمثل تاريخا عاطفيا معينا يجعل الارتباط بهذا الاسم والتعلق به وتفضيله عن غيره من ملايين الأسماء ممكنا جدا، وفي كل الحالات يبقى الاسم من صلاحيات الغير سواء أكان هذا الغير أبا أو أما أو غيرهما، ويبقى صاحب الاسم مجردا من تلك الصلاحيات لأن عليه أن يرضخ لهذه الإرادة الاسمية بطريقة ما، وحتى إن أتيحت له الفرصة لرفض سلطة الغير الاسمية فذلك على الأقل سيكون متأخرا، وقد يكون ممكنا في حالات تجاوز مرحلة الطفولة، وهكذا يتعايش الطفل مع اسمه بغض النظر عن التفكير في الكيفية التي وسم بها، بل كثيرا ما تشغل بال هذا الطفل الكيفيات التي تؤهله ليكون في مستوى هذا الاسم، بمعنى في مستوى من كانت لهم صلاحية انتقاء الأسماء، ولذلك يرتبط اسم "موسى" في الحقيقة بالأبوة أكثر من ارتباطه بالطفل، لأن فكرة الاسمية تكون قد عاشت مخاضا معينا وخضعت لكثير من مراحل الاجتهاد والانتقاء، وحتى لا نلح في رصد التفاصيل التاريخية يمكننا أن نحتمل أن الاسم في النهاية هو نتيجة تحولات انتقائية، سواء أكانت هذه التحولات الانتقائية واعية أو غير واعية بما أن الأبوة غالبا تتوخى انتقاء الأفضل، وهذا الأفضل سيكون مرتبطا بها كل الارتباط، والمقصود هنا هو أن الأفضل يحيل

دائما على طموحاتها وأحلامها واهتماماتها وتمنياتها وأساطيرها واعتقاداتها، ومن هنا تكون فكرة الانتقاء هي إحالات للموقع الوجودي بكل ما يحمله هذا الموقع من بنيات معرفية موغلة في اللاشعور البشري تجعل الاسم ظاهرة بشرية بامتياز تواكب كل التواريخ المتواشجة بامتياز، أو لعلها تصنع تلك التواريخ، أو ربما تحاول بعثها بنمط ثقافي جديد، لكنه دائما يرتبط بالماضي والحنين الفطري للماضي، ومحاولات تقمص الماضي، وكأن الاسم نمط للحفاظ على السلالة البشرية وتحقيق الخلود والأبدية المزعومة، وإلا ما تفسير تكرار الأسماء، وهل يمكن أن تكون اللغة بكل طاقاتها الخلاقة عاجزة عن توليد الابتكار الاسمي؟ كان يمكن أن تباد الأسماء وتفنى كما يفنى أصحابها، لكن كثيرا منها مازال يعيش خالدا بيننا منذ ملايين السنين لا يطاله العفاء و"إذا كانت كل الأشياء آيلة إلى الزوال فإننا نحتفظ منها بأسماء خالصة" (28) ومازال اسم "آدم" أبي البشرية يعيش بيننا في هذه اللحظة بالذات، حيث كثيرون يتحمسون لهذا الاسم، ومازالوا لحد الساعة يسمون أبناءهم "آدم" ولا يهمهم كم "آدم" وجد على هذه الأرض، و"موسى" هو الآخر يجعلنا نتساءل كم "موسى" على وجه هذه الأرض أو تحتها أو من هم قادمون ويتربص بهم هذا الاسم؟

لقد ارتبط اسم "موسى" بالنبوة، ولذلك يستمد هذا الاسم سحره من هذه النبوة، والأسماء المرتبطة بالنبوة هي أقوى الأسماء خلودا بين البشرية، وأكثرها رواجا وتداولا وأبهرها تناسخا وبعثا، لا ندري بالضبط كم "موسى" كان قبل النبي "موسى" لكننا نعتقد أنهم قليلون جدا أو ربما نادرون أو ربما غير موجودين أصلا في حين أننا نعي جيدا أن ملايين "موسى" جاؤوا بعد "موسى"، وأن هذا الاسم هو من الأسماء التي قدّر لها أن تبقى خالدة تمارس سحرها وكل إمكانياتها الإحالية، ولا يمكن أن يكون "موسى" إلا نموذجا انتقائيا بامتياز لأنه

بفضل قوته الانتشارية الهائلة ما فتئ يرتبط كل الارتباط بالنبي "موسى"، لذلك كائنا من كان اسمه "موسى" وجب عليه بطريقة أو بأخرى أن يتحمل عبء هذا الانتماء النبوي لأنه لا يمكن لأحد أن يناديك "موسى" وينسى "موسى"، ولأنه "من غير العادي استعمال اسم علم إذا لم نفكر بأن هذا الاسم يقول شيئا ما لمخاطب" (29)، وسيبقى التاريخ النبوي حالّا في هذا الاسم شئنا أم أبينا، ولذلك كانت فكرة الانتقاء الاسمي – غالبا – تمتح من الماضي، وتختار أوفر الأسماء قوة وقداسة وشيوعا حتى يكون الاسم مشحونا بقوة تاريخية تؤهله ليحظى بالتبجيل والاحتفاء، في حين يعد ابتكار الاسم نوعا من التخلي عن الماضي وعن التاريخ البشري، وهذا غالبا لا يلقى استحسانا واحتفاء، لا لشيء إلا لأنه لا يمنحنا تواصلا مع الماضي، هذا الماضي الذي يعني إقصاؤه إلغاء الوجود البشري والتنكر لكل المقدسات والتواريخ والعادات والحضارات والثقافات.

إن "موسى" هو نموذج انتقائي للتواصل مع الماضي، فهو الحلقة التواصلية بين الحاضر والماضي، ولذلك هو أخطر توجه عقدي للأبوين لأن الاسم من شأنه تضييق الهوة بين الحاضر والماضي أو توسيعها، ذلك أن صاحبه مرغم بطريقة أو بأخرى على التنبه لما قد يثيره اسمه من دلالات، ومرغم على التورط في قراءة التاريخ وبعثه من جديد، ومرغم كذلك على تأويل كثير من مواقف الحياة تأويلا يتماشى مع تاريخ الاسم، ومع هذا التاريخ النبوي الذي يفرض نفسه وحضوره على صاحب الاسم وعلى أولئك الذين يتعايشون مع هذا الاسم أو يرتبطون به، لاسيما على مستوى الإبداع الذي يكون أكثر لغزا وتكثيفا وغواية في انتقاء الاسم، فكما تتبنى الأبوة انتقاء الأسماء، فكذلك الوعي المبدع لطالما يكون مهوسا بالانتقاء، وفي كل تلك السياقات تكون الأسماء

نموذجا قصديا بامتياز يمكن لمحاولات رصده أن تثير كثيرا من الأفكار وكثيرا من المتاعب أيضا.

لقد أومأنا سلفا إلى أن الطفل فقد اسم "موسى" وتغيّر اسمه حين استعبد، وكان من الممكن أن يبقي الأسياد على الاسم الحقيقي للطفل لكنهم تجاهلوه تماما وقاموا بإقصائه، ولعل من بين الأسباب الوجيهة – إضافة إلى الاحتمالات التي قدمناها من قبل – أن اسم "موسى" في فخامته الدلالية وقداسته التاريخية وانتمائه النبوي ما يتعارض كل التعارض مع فعل النخاسة، ولذلك لم يتجرأ الأسياد على إبقاء الاسم النبوي لأنه يتنافى مع العبودية ويقوض سلطتها، حيث إن اسم "موسى" يفقدهم هيبتهم وتجبرهم، ويثير فيهم خوفا قديما لا يمكّنهم من التطاول على المقدسات، ومن هنا كان السبيل الوحيد للتعامل مع هذا الرُهاب التاريخي هو التخلص من الاسم، حيث إن التخلص منه معناه التخلص من أعباء الولاء لهذا الاسم، وبالتالي ييسر استعباد الطفل مادامت سلطته الاسمية قد انتفت واختفت، وكل ما كان يضطلع به الاسم المقدس من حماية قد اندثر لمجرد فقدان الطفل لهذا الاسم، بمعنى أنه فقد كل شروط الأمان والحماية، وبات عاريا تنهشه سياط النخاسة حيث أسماء جديدة (سلاك – مبروك – بلخير) وكلها أسماء خاوية من كل قداسة ومن كل نبوة وقوة، ودلالاتها التاريخية والدينية ضعيفة يسهل التطاول عليها وتدجينها، لذلك ارتبطت النخاسة بتغيير الاسم وفق ما يتماشى مع الرؤية للعبيد التي تتأسس على كون العبد خانعا خاضعا وضرا تافها خادما وفيا لأسياده، ولا بد أن يكون اسمه كذلك خادما لهم في مستوى اعتقادهم الراسخ بضرورة الاسم لتحقيق سلطتهم، أما "موسى" فهو يتعارض مع هذه السلطة، لأن مجرد التلفظ به يلغي كل أنماط الاستعباد ويغرق التسلط الفرعوني في يم أجاج، ويثير كثيرا من

الارتباك والتواري والانحناء مثل الساحر الذي إذا ذكر له "موسى" أصابه الغثيان، وطفقت لخلده صور أجداده حين جثوا أمام "موسى" خانعين خائبين، فكان لزاما أن يتخلص السيد من الاسم المقدس لأنه يتخلص من تبعاته وأعبائه، ويجيء باسم جديد يضفي به مشروعية على أعماله النخاسية وما تتطلبه تقاليدها من إغماط واحتقار وإذلال وإهانة واستعباد، فالتخلص من الاسم ليس تخلصا من سلطة الأبوة والانتماء بقدر ما هو تخلص من سلطة الاسم في حد ذاتها وعدم القدرة على مواجهته واستعباده وتدجينه، لذلك يسر استعباد الطفل لكن استحال استعباد اسمه، وإنه لمن الغريب أن تكون أحيانا أسماؤنا أقوى منا بكثير.

ما يثير الانتباه هو أن الطفل كان قادرا – حين أصبح شيخا واستعاد حريته – على أن يستعيد اسمه المقدس، فرغم احتفاظه به في الذاكرة دائما إلا أنه لم يقو على استرجاعه، حيث كان بإمكانه – حين عرضت عليه خدمات تمكينه من بطاقة هوية – اقتراح اسم "موسى" والتخلص من رباق أسمائه المتغيرة، لكن المفاجأة أنه تقبّل اسما جديدا "سالم"، وكأنه لم يستطع أن يكون في مستوى الاسم المقدس، فهو الآخر استوعب وضعه المزري الذي يتنافى مع رهبة الاسم وعظمته، وأدرك أنه لن يكون في مستوى الاسم النبوي، لذا تنازل عن الاسم لأنه اسم ليس بالمقدور التعايش معه وليس باستطاعة "سالم" أن يكون "موسى" في كل الأحوال، حيث إن التناقض صارخ بين "موسى" وبين "سالم"؛ بين تاريخ من النبوة والقداسة من جهة، وتاريخ من النخاسة والاستعباد والإذلال من جهة ثانية.

من خلال ما سبق يتجلى لنا أن اسم "موسى" حافظ على توهجه وقوته ووجوده، فهو اسم محوري لم يستطع أحد العبث معه أو الحط من قيمته، وقد مارس هذا الاسم سلطته على مستوى الوعي الأبوي والوعي الجمعي، وعلى

مستوى الذات أيضا فكان حضوره دليلا على قداسته وقوته، وكان تغييبه أيضا دليلا على رهبته وعظمته، فصار يتمتع بنفوذ كاف يتيح له التناسخ في صور متعالية من الفخامة والقداسة والحرية المطلقة دون حاجة لأية قرينة لغوية تعزّز دلالاته النبوية، فهو اسم غني عن التعريف قوي بما يكفي ليعرّف عن نفسه بنفسه، تاريخه مخبوء في عمق الوجود البشري، لذلك اكتفى الوعي المبدع بتقديمه هكذا "موسى" دون ألقاب ودون لفظة "بن" ليحيل على عظمة هذا الاسم المقدس، وبما أن عظمته تتنافى مع ما آل إليه حال الطفل فقد كان لزاما التنازل عن الاسم مثلما تنازل الطفل عن حياته الأبوية المترفة وتنازل عن جاهه وانتمائه غصبا، فهذا الذي كان يفترض به أن يكون نبيا – حيث إن النبوة هنا هي القدرة على التغيير والتشريف والحرية – لم يفلح في ذلك، وعاش ضحية للقهر والتقزيم والتسخير، فلم يكن بذلك في مستوى النبوة، ولم يعد جديرا بهذا الاسم، كما أن المجتمع الذي يمارس نخاسة الأطفال واختطافهم وتسخيرهم ليس في مستوى التعايش مع هذا الاسم، ولذلك جاء "موسى" لكنه غاب ورحل بسرعة، ولكي يعود "موسى" من جديد يحتاج مجتمع الرواية لتأهيلات عديدة وتغيّرات جذرية مختلفة.

إن الأسماء الأخرى (سلاك – بلخير – مبروك) التي تهافتت على الطفل تبدو من الوهلة الأولى أنها ملك للأسياد، أما "موسى" فهو الاسم الذي يمتلكهم، ويفترض أن يكونوا عبيدا له، لأن لديه من القوة ما يمكنه من السيطرة عليهم، ولذلك تملصوا من رباق هذه السيادة الاسمية عن طريق أسماء لا تملكهم بل يمكنهم امتلاكها وتخضيعها، وهي – غالبا – أسماء من صنيعهم وابتكار عاداتهم وتقاليدهم النخاسية، ولا تحيل على دلالات مقدّسة أو تحرّض على الحرية، أو تبعث على تفخيم الأنا، أو تربط بماض تليد، وهي أسماء خاوية من

كل توهج تاريخي أو بطولي، و"أسماء مفرغة من شحناتها المعنوية وتخلو من الأوصاف والمرجعيات وتبتعد عن النماذج التاريخية" (30) ، ولهذا كان انتقاؤها في حد ذاته براعة نخاسية، حيث إن الاسم – في هذا السياق – هو مجرد اسم خاوي الوفاض لا يعزّز إلا العبودية والخضوع وسلْب صاحبه من كل إرادة ووعي إيجابي، فهو هكذا مجرد "سلاك" ومجرد "بلخير" ومجرد "مبروك"، وهذا السلاك والخير والبركة كله في خدمة الأسياد، ونمط اسمي للتفاؤل يجعل من الحتمي أن يكون هذا الطفل في مستوى أسمائه النخاسية الجديدة، بمعنى في مستوى تطلعات الأسياد، لذلك تلغى الذات وتغيب رغباتها وتقمع، ليكون الطفل فقط عبدا لأسمائه وعبدا للأسياد مادام الاسم في حد ذاته عبدا للسيد، هذا الأخير الذي يبدي رغباته من خلال المعاني التي يضمّنها للاسم، فيكفي أن ينادى الطفل بـــ "بلخير" ليعي أن المطلوب منه هو توفير الخير للسيد، ويكفي أن ينادى بـــ "مبروك" ليُلزم بتوفير البركة، وهكذا هو عبد مادام في خدمة معاني أسمائه، وإن صادف وتناقض وجوده مع اسمه فسيكون مصيره البيع أو القتل.

لقد ارتبطت باسم "موسى" كل النعوت الجميلة الفاتنة التي تليق بمستوى هذا الاسم النبوي المقدس، ولا يمكن بأي حال أن ترتبط نعوت النخاسة بهذا الاسم لأن تناقضا صارخا سيهشم فكرة الوجود، ولذلك تخلص السادة من صفتي (الغالي – الحبيب) التي ارتبطت بالاسم المقدس، وبذلك تخلصوا من كل النعوت المقدسة المحتملة، واستعاضوا عن الاسم المقدس بأسماء ضعيفة الانتماء مشوهة النسب، فأتيحت لهم الفرصة وسيعة لممارسة لغتهم النخاسية بأريحية وحرية "أرأيت أيها المجرم؟" (31) وفي سياق آخر "أسرع يا خشبة جهنم" (32) ، والملاحظ على الأسماء النخاسية أن الأسياد ينتقونها بما

يتناسب مع أحلامهم وطموحاتهم، لذلك يعتبرونها من أملاكهم الخاصة، فإن وقع وغادر العبد أو قتل أو اختطف فإنه مجبر على ترك الاسم، ولذلك كانت الأسماء النخاسية تحيل على التفخيم وتضخيم أسماء الأسياد، ولذلك ارتبط اسم "سلاك" بالسيد "أحمد سلوم"، وارتبط اسم "بلخير" بـــ "الشريف عبد الصمد"، وارتبط اسم "مبروك" أيضا بأسياده، وهكذا تكون قوة المالك بقوة الأسماء التي يمتلكها، فلطالما كان العبد اسما، ولطالما كان الاسم ملكا للسيد، ولذلك يتفنن السيد في الانتقاء، ويختار أسماء الخير والبركة لأنه في النهاية ينتقي لنفسه ويحرص على انتقاء ملكيته ويحافظ عليها أما العبد كجسد فالاسم ليس من حقه بل هو عبد لاسم سيده، فكانت الأسماء بذلك أسماء الأسياد، أما العبيد فهم كومة من الأجساد الغارقة في الشقاء لا يملكون شيئا من الأسماء، وما يحظون به فقط هو تلك النعوت المشينة وكثير من السب والضرب "عبد الصمد يضربني كل يوم" (33)، لذلك لا يمكن أن يكون الاسم هو العبد نفسه لأن فكرة القصدية تتناقض مع نفسها، فالقصدية التي يتأسس فيها الاسم موضوعا مفعمة بالاحتفاء والانتقاء، أما القصدية التي يتأسس فيها العبد موضوعا فهي قصدية مفعمة بالإغماط والازدراء، وشتان بين الاحتفاء والازدراء، لذا تكون علاقة الاسم بالعبد هي علاقة تناقض يفسره الفعل النخاسي الذي يقوم على السلب والقمع واضطهاد كل محاولات التحرر والوعي، فمادام العبد لا يملك اسمه لا يمكنه أن يملك حريته، وسيكون مستعدا لتقبل كل الأسماء وكل النعوت وكل الأعمال، ولكي يكون الاسم النخاسي قامعا بما يكفي فقد جرّده الأسياد من كل القرائن اللغوية التي قد تحيل إلي أي بعد إثنوغرافي، حيث إن الاسم النخاسي خال من كل لقب وخال من لفظة "بن"، فهو هكذا اسم وحيد عار من كل انتماء قبلي أو دموي كأن هذا الطفل ولد هكذا دون أب أو قبيلة أو أسرة، وتجريد الاسم النخاسي من كل تلك الدلالات اللغوية يكرس فكرة العبودية، فهو ليس مدينا

لأي انتماء، ولا يمكن أن يكون مدينا إلا للسيد الذي وسمه وامتلك اسمه، كما أن الاسم الوحيد لا يثير أي فضول بغية التفتيش يوما عن الهوية الحقيقية، وبذلك هو إلغاء لكل العناوين المحتملة للحرية، ووصاد لكل الأبواب لكي يبقى العبد غارقا في وحدته الاسمية إلى الأبد، ومن هنا تأتي المفارقة الاسمية، حيث إن اسم "موسى" يستغني بقوته الإحالية عن كل القرائن اللغوية، أما الأسماء النخاسية التي أطلقت على الطفل فإنها لا تمتلك تلك القوة، وزادها ضعفا أن عزلت عن كل القرائن اللغوية والإثنوغرافية فكانت تناقض كل التناقض الاسم المقدس.

مما سبق يمكن القول إن الطفل في رواية "الأسماء المتغيرة" كان عبارة عن اسم بكل ما يوحي به هذا الاسم من دلالات، وما أثاره من تغيّرات تحكّم فيها التوالد القصدي الذي تغيّر من النقيض إلى النقيض، ومن القصدية الأبوية والاسم المقدس إلى القصدية النخاسية والأسماء الاستعبادية، لكن في النهاية حافظ الاسم المقدس على فتنته ورهبته وجاهه، رغم أن الطفل لم يستطع أن يكون يوما في مستوى عظمة هذا الاسم، بل كان دائما أسير أسمائه المتغيرة، حيث تمكن الفعل النخاسي من تعرية الطفل وسلبه لاسمه المقدس، وتحويله إلى عبد تحترفه العبودية، ولذلك انتهكت حريته وقمعت، أما كون الاسم المقدس قد حافظ على فتنته وقداسته فذلك يكمن في كون الفعل النخاسي لم يتجرأ على تدنيس الاسم، واكتفى بتغييبه وعدم القدرة على مواجهته، وقد تحققت هذه القصدية في حال لم يستطع فيها الطفل أن يكون في مستوى اسمه المقدس، وضعف مستويات وعيه وقلة حيلته أجبراه على التنازل عن اسمه، وهذا يعني أن العبودية قد تمكنت من الطفل، فلم يستطع حتى وهو شيخ حر أن يتجرأ على استعادة اسمه أو المطالبة به، فكان أن دُنست هوية الطفل، لكن لم تُدنس هوية

الاسم، وكان أن عاش الاسم حرا متميزا قويا، ولم يعش الطفل كذلك، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: هل تخلى الاسم عن الطفل أم أن الطفل هو الذي تخلى عنه؟ بغض النظر عن الضغوط التي أحاطت به والظروف التي أنهكته، وفي الحقيقة يبدو – ظاهريا – أن الطفل حين صار شيخا تخلى عن الاسم بإرادته لأنه اختار اسم "سالم"، في حين أن هذا التخلي يحيل – باطنيا – إلى تلك التحولات القصدية التي فرضت الانفصال فرضا تعسفيا، رغم أن الاسم في حقيقته وفي كل الحالات هو فرض تعسفي، لكن شتان بين فرض تعسفي تكون غايته إيجابية، وفرض تعسفي غايته نخاسية استعبادية، ولذلك يحيلنا الاحتمال الفينومينولوجي إلى إشكالية عدم قدرة الطفل على مواجهة التحولات القصدية، فلطالما اعتبره الغير موضوعا، ولم يستطع أن يحولهم بدوره إلى موضوع، على أن قصديته إزاء الاسم الأبوي المقدس كانت إيجابية تتميز بالتقبل والاحتفاء، أما قصديته إزاء الأسماء النخاسية فكانت تتميز بالرفض والاستنكار، حيث "تعجب لماذا لا يدعى باسمه الحقيقي؟!"(34)، لكن طفولته لم تمكنه من التمسك بالاسم المقدس ومن رفض الأسماء المتغيرة، ولذلك يستهدف العمل النخاسي الأطفال لأنه ييسر السيطرة عليهم وعلى أسمائهم، وييسر التلاعب بهم والعبث بعقولهم.

وفي النهاية الانتقاء الاسمي من أهم ما يميز الوعي البشري والحضارة الإنسانية، وهو في الآن نفسه من أخطر الأشياء التي يجب أن نوليها اهتماما بالغا وعناية كبيرة، ويمكن أن يكون الاسم مفتاحا لكثير من الألغاز الوجودية والتاريخية، إذا استهدف بدراسات جادة وتنقيب تيماتي جاد "تتداخل فيه مختلف الرؤى الفلسفية والمناهج النقدية الظاهراتية، الوجودية، التأويلية، البنيوية، النفسانية" (35) كما أن الاسم شكّل أوار التجارب القصدية، ولطالما كان تيمة

ثرية في إحالاتها على العلاقات المعقدة، لأنه كثيرا ما يختصر الذات والموضوع معا، وكثيرا ما يتحكم في زمام التوالد القصدي، كما يمكننا أن نقول بنبرة من الثقة إن الإنسان اسم قبل كل شيء، تلك الأسماء التي تسبقنا دائما وربما تسبق خروجنا من الرحم أحيانا، وتبقى معنا وتبقى بعدنا مرسومة على كل أوراقنا ودفاترنا، وفي سجلات وفياتنا، وفوق قبورنا.

الهوامش والإحالات

[1] حميد لحميداني، سحر الموضوع، عن النقد الموضوعاتي في الرواية والشعر، منشورات دراسات سال، المغرب، الطبعة الأولى، 1990(م)، ص 29.

[2] إدموند هوسرل، فكرة الفينومينولوجيا، ترجمة: فتحي انقزو، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، 2007(م)، ص 35.

[3] جميل حمداوي، المقاربة الموضوعاتية في النقد الأدبي، 24 ــ 02 ــ 2009.

موقع مجلة طنجة الأدبية: http//ar. Aladabia. Net / article - 1098

[4] محمد سماح رافع، المذاهب الفلسفية المعاصرة، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1973 (م)، ص 109.

[5] ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي بالدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثالثة، 2002(م)، ص 321.

[6] إدموند هوسرل، تأملات ديكارتية، ترجمة: تيسير شيخ الأرض، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، دط، 1958(م). ص 45.

[7] دانيال بروجير، النقد الموضوعاتي، مجموعة من الكتاب، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمة: رضوان ظاظا، مؤسسة عالم المعرفة، العدد 221،الكويت، الطبعة الأولى، 1997(م)، ص 110.

[8] محمد سامح رافع، المرجع السابق، ص 119.

[9] نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، دار نوبار للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2003(م)، ص 446

[10] حميد لحميداني، المرجع السابق، ص 24.

[11] محمد سامح رافع، المرجع السابق، ص ص 109، 110.

[12] ميجان الرويلي، سعد البازعي، المرجع السابق، ص 291.

13أحمد ولد عبد القادر، الأسماء المتغيرة، دار الباحث، بيروت، الطبعة الأولى، 1981(م)، ص 12.

14إدموند هوسرل، فكرة الفينومينولوجيا، ص 130.

15يوسف عطية، فينومينولوجيا التيمة في رواية "الفراشات والغيلان" للروائي عزالدين جلاوجي،16- 12 - 2014، موقع مجلة أدب فن الإلكترونية: http://www.adabfan.com/magazine/4093

16 أحمد ولد عبد القادر، المصدر السابق، ص 101.

17عبيد مهدي، أطفالنا والحياة المعاصرة، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، 1982(م)، ص 22.

18 أحمد ولد عبد القادر، المصدر السابق، ص 12.

19 المصدر نفسه، ص ن.

20 محمد عزام، النقد الموضوعاتي، الموقف الأدبي، ع 356، س 30، كانون الأول 2000، ص 22.

21 أحمد ولد عبد القادر، المصدر السابق، ص 12.

22 المصدر نفسه، ص ن.

23 فؤاد كامل، أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1993(م)، ص 166.

24 أحمد ولد عبد القادر، المصدر السابق، ص 32.

25 المصدر نفسه، ص 53.

26 محمد الحسن ولد محمد المصطفى، الرواية العربية الموريتانية، مقاربة للبنية والدلالة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دط، 1996(م)، ص 38.

27 يوسف وغليسي، الرؤيا الشعرية والتأويل الموضوعاتي، عالم الفكر، ع 1، مج 32، يوليو سبتمبر 2003، ص 28.

28 أمبيرتو إيكو، حاشية على اسم الوردة، ترجمة: سعيد بن كراد، دار كرم الله للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت، ص 11.

29 تزفيطان تودوروف، مفاهيم سردية، ترجمة: عبد الرحمن مزيان، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2005(م)، ص 100.

30 حسن بن عثمان، أطفال بورقيبة، دار التنوير، بيروت،دط، 2011(م)، ص 77.

31 حمد ولد عبد القادر، المصدر السابق، ص 41.

32 المصدر نفسه، ص 53.

33 المصدر نفسه، ص 40.

34 المصدر نفسه، ص 12.

35 يوسف وغليسي، التحليل الموضوعاتي للخطاب الشعري كلام المنهج فعل الكلام، دار ريحانة، الجزائر، 2007(م)، ص 147.